الدرس الثاني والثلاثون

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله ؛ صلى الله وسلَّم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . وبعد :

يقول الإمام المجدد شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى في كتابه «كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد »:

بابٌ قول الله تعالى {إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}[آل عمران:١٧٥] .

وقوله: { إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ}[التوبة:١٨] .

****

هذه الترجمة ((**بابٌ قول الله تعالى ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾** [آل عمران:١٧٥] **وقوله : ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ﴾** التوبة:١٨])) ؛ترجم رحمه الله تعالى هذه الترجمة لبيان عبودية عظيمة من عبوديات القلب افترضها الله سبحانه وتعالى على عباده وأوجبها عليهم ، وأوجب إخلاصها له وحده جل وعلا وجعل ذلك شرطاً في الإيمان ألا وهي : عبودية الخوف والخشية من الله جل وعلا .

والخوف المراد به : خوف العبودية الذي هو خوفٌ من الله تبارك وتعالى وخشيةٌ منه ومن عقابه جل وعلا ؛ هذه عبودية لا يجوز صرفها لغير الله عز وجل ، ويسمى هذا الخوف «خوف السر»؛ أي ما يكون في سر الإنسان وباطنه من خوفٍ يترتب عليه ذلٌ وعبودية للمخوف ، وهذه لا يجوز صرفها إلا لله تبارك وتعالى ؛ الذي هو خوف التأله والتعبُّد والخضوع والذل فهذه عبودية لا يجوز صرفها لغير الله ، فمن صرفها لغير الله تبارك وتعالى فقد أشرك بالله واتخذ مع الله تبارك وتعالى شريكاً ، ولهذا قال الله جل وعلا: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٧٥]وقال: ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ﴾ [المائدة:٤٤] وقال: ﴿وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ [البقرة:٤٠] والآيات في هذا المعنى كثيرة .

فهذه عبودية لا يجوز صرفها إلا لله تبارك وتعالى ؛ الخوف الذي هو خوف التأله والتعبد والتذلل هذه عبودية لا يجوز صرفها لغير الله ، فمن صرفها لغير الله فقد أشرك ، مثل أن يخاف مثلاً إنسانٌ ما من شخصٍ مقبور ، وهذا يكثر عند المتعلقين بغير الله من المتعلقين بالقبور وبالموتى وبالأشجار أو نحو ذلك ، فإذا وُجد في سره وفي قلبه

خوف من ذلك المقبور أن مثلاً يسلب منه إيمانه أو يسلب منه صحته أو نحو ذلك فهذا من الشرك الأكبر الناقل من ملة الإسلام . وقد دأب أهل الشرك في قديم الزمان وحديثه أن يخوِّفوا من يردُّ باطلهم وينقض شركهم أن يخوِّفوه بتلك الآلهة التي تعلقوا بها وعبدوها من دون الله تبارك وتعالى . ولمقام الخوف في الدين الرفيع ومنزلة الخوف العلية عقد المصنف رحمه الله تعالى هذه الترجمة لبيان مكانة هذه العبودية من دين الله وأنها عبوديةٌ افترضها الله سبحانه وتعالى على عباده وأوجبها على عباده وأوجب إخلاصها له سبحانه وتعالى وحده ، وأن من صرف هذه العبودية لغير الله تبارك وتعالى فقد اتخذ مع الله جل وعلا شريكاً في العبادة .

و«الخوف» يأتي ذكر هذه العبودية في القرآن في مواضع كثيرة جداً ؛ فيأتي بلفظ «الخوف» كما في هذه الآية : ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ ﴾ [آل عمران:١٧٥] ، ويأتي بلفظ «الخشية» و«الرهبة» و«الوجل» و«الهيبة» ، وهذه الكلمات كما بيَّن أهل العلم متقاربة في المعنى ولكنها ليست مترادفة .

والخشية وقد جاءت في قوله سبحانه وتعالى ﴿ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ ﴾ [التوبة:١٨] أخص من الخوف ، لأن الخشية خوفٌ مع معرفة بالله وعلم ، ولهذا قال الله سبحانه وتعالى ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر:٢٨] .

- فالخشية أخص من الخوف ؛ لأنها تكون مع علمٍ .
- والرهبة : هي الإمعان في الهرب من المكروه ومن الشيء المخوف .
- والوجل : خفقان القلب لذكر من يخافه .
- والهيبة : خوفٌ مقرون بالتعظيم .

فإذاً هذه الكلمات متقاربة المعنى وإن كانت ليست مترادفة ، وكل ذلكم يجب إخلاصه لله تبارك وتعالى وأن يُفرد به جل في علاه .

ومن أعلى مقامات الدين: الخوف من الله ، والخوف من الوقوف بين يديه ، والخوف من حسابه وعقابه جل وعلا، والخوف كما تقدم عبوديةٌ مكانها القلب لها أثرها العظيم على جوارح العبد ؛ لها أثرها على بصره ، لها أثرها على سمعه ، لها أثرها على لسانه ، لها أثرها على سلوكه وأعماله . وكلما زاد القلب خوفاً من الله تبارك وتعالى كان ذلك أدعى لبُعد العبد عن المحرمات والشهوات والأمور التي تُسخط الله تبارك وتعالى ، ولهذا قال العلماء : الخوف زاجر للعبد عن المحرمات ، وهو من أعظم المحركات للقلب ، أعظم محركات القلب لينبعث في الأعمال الصالحة والطاعات الزاكية المقربة إلى الله أن يُعمَر بالخوف من الله سبحانه وتعالى .

وقد تقدم معنا في الترجمة الماضية ذكر عبودية المحبة ، والمحبة كذلك من أعظم محركات القلوب ، لكن تختلف المحبة عن الخوف –وكلاهما من محركات القلوب– أن المحبة عبودية مقصودة لذاتها ، وأما الخوف مقصود لغيره ؛ مقصود الخوف: زجر الإنسان عن الشهوات وعن المحرمات وعن الأمور التي تُسخط الله تبارك وتعالى وتغضبه ، ولهذا لما

كانت المحبة عبوديةً مقصودةً لذاتها ولها هذه المكانة لا تنتهي في الآخرة بل هي مستمرة ، بل تعظم عندما يدخل عباد الله تبارك وتعالى المؤمنون الجنة تتضاعف المحبة في قلوبهم وتزيد ، أما الخوف إذا أكرم الله سبحانه وتعالى أهل الإيمان بدخول جنات النعيم ذهب عنهم الخوف وزال من قلوبهم ؛ فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، لأن الخوف زاجر ورادع للعبد في هذه الحياة عن مقارفة الذنوب وارتكاب الخطايا ، ولهذا قيل إن الخوف من الله سبحانه وتعالى إذا فارق القلب خرب القلب ، وكلما كان القلب خائفاً من الله فإن صاحبه سيكون على الطريق طريق السداد الموصِل إلى الله تبارك وتعالى ، وإذا ذهب عن قلبه الخوف ضلَّ الطريق .

ولهذا الخوف زاجر للسائر إلى الله والدار الآخرة ؛ فهو يسير في طريقه إلى الله وكلما حدَّثته نفسه أن تنعطف عن الطريق يميناً أو شمالاً هنا أو هناك جاء هذا الخوف وردعه وذكَّره بمقامه بين يدي الله وعقاب الله والنار وسخط الله. ولهذا قال العلماء : ثمة أمور يُستجلب بها الخوف إلى القلب مثل : أن يتذكر آيات الوعيد ، أن يتذكر النار، أن يتذكر سخط الله وعقابه جل وعلا ، إلى غير ذلك من المعاني التي يُستجلب بها الخوف ، ولهذا العبد يحتاج إلى الخوف حاجة دائمة مستمرة لأن الخوف زاجر له .

والخوف شأنه شأن أمور الإيمان الأخرى يزيد وينقص ويقوى ويضعف ، ولزيادته أسباب ولضعفه أيضا أسباب ، والعبد لا يزال بخير مادام ينمِّي خوف الله في قلبه ويحاول أن يزيد في قلبه الخوف من الله سبحانه وتعالى رجاء أن يكرمه الله بأن يكون ممن قال الله فيهم: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾[الرحمن:٤٦] . فالخوف من الله تبارك وتعالى يقود العبد ويسوقه ويزجره ، وكلما حدثت العبد نفسه أن يميل يمينا أو شمالا جاء الخوف وزجره وردعه حتى يمضي في الطريق على السداد والقوام ، وكل شيء يخاف منه الإنسان يفر منه إلا الله سبحانه وتعالى فإن العبد كلما ازداد خوفاً من الله أقبل على الله ، لأنه لا مفر من الله إلا إليه ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾[الذاريات:٥٠] ، فكلما زاد العبد خوف من الله تبارك وتعالى أقبل على الله وتجنب مساخط الله وحرص على عبادة الله وتجنب الأمور التي تُغضب الله تبارك وتعالى فكان له الأثر العظيم على العبد .

لكن ينبغي أن يُعلم أن ثمة ضابط هنا نبه عليه العلماء رحمهم الله ألا وهو : أن الخوف الذي يُحمد هو ذلك الخوف الذي يزجر العبد عن المعاصي وعن فعل ما نهى الله تبارك وتعالى عباده عنه ، أما إذا زاد هذا الخوف عن حده ربما انقلب إلى يأس وقنوط من رحمة الله .

ولهذا قال العلماء: يحتاج العبد في هذا المقام إلى توازن بين أمور ثلاثة : المحبة والرجاء والخوف ، وهذه الأمور الثلاثة كلها محركات للقلوب . والسائر إلى الله تبارك وتعالى يحتاج إلى هذه الأمور الثلاثة : المحبة والرجاء والخوف . قالوا ومثل هذه الأشياء الثلاثة وحاجة العبد في سيره إلى الله إليها مثل الطائر ؛ المحبة رأسه ، والرجاء والخوف جناحاه ، والطائر إذا قُصَّ رأسه مات ، وإذا قص أحد جناحيه لم يتمكن من الطيران وأصبح عرضةً لكل صائدٍ

وكاسِر . فيحتاج فعلا إلى المحبة التي هي روح الدين ، ويحتاج إلى الرجاء والخوف ؛ الرجاء قائد والخوف سائق ، الرجاء قائد يحرك العبد ويرغبه في الفضائل في الأعمال في الطاعات في العبادات ، والخوف من ورائه زاجر ، كلما أراد أن يحيد أو ينحرف عن الطريق جاء هذا الخوف وساقه إلى طاعة الله وحُسن التقرب إليه سبحانه وتعالى .

وهذه العبادة عبادة الخوف والخشية من الله عز وجل الناس بحاجة إليها حاجة ماسة ؛ لأن قلوبهم إذا تعطلت عن وجود الخوف من الله سبحانه وتعالى فيها خربت القلوب كما تقدم ، ولما كان الخوف شأنه شأن أمور الإيمان الأخرى كما قدمت يزيد وينقص ويقوى ويضعف فإن الإنسان عندما يضعف فيه جانب الخوف تتسلط عليه الشهوات ويكتنفه الشيطان من كل جانب ويوقعه في الآثام والخطيئات ؛ ولهذا يحتاج العبد أن يقوي في نفسه دائما جانب الخوف ، وكلما حدثته نفسه بريبة أو بمعصية يذكِّرها بأن رب العالمين يراها وأنه مطلع عليه وأنه يحاسبه

إذا خلوت الدهر يوماً فلا تقل خلوت ولكن قل عليَّ رقيب

ونحن في هذا الزمان الذي فعلاً كثرت فيه الفتن وتوالت على الناس ودخلت عليهم في البيوت وفي الجيوب وفي أماكن كثيرة ، دخلت فتن على الناس لم تكن موجودة في زمان سابق ، أقصد من خلال الوسائل الجديدة الحديثة التي توفرت لدى الناس مثل هذه الشاشات شاشات الانترنت الشبكة العنكبوتية أو الأجهزة الآن التي يحملها كثير من الناس في أيديهم وفي جيوبهم ، كم فيها من الأمور التي تستجر الإنسان إلى الشهوات وإلى المحرمات وإلى النظر المحرم وإلى السماع المحرم!! فما أحوج الناس إلى الخوف من الله ، ما أحوج الناس إلى الخوف من المقام بين يدي الله تبارك وتعالى ، وعندما يضعف في العبد هذا الخوف من الله تبارك وتعالى تتسلط عليه الشهوات ثم لا يبالي بأن يستعمل نظره في أمورٍ حرمها الله عليه ، أن يستعمل سمعه في سماع أمورٍ حرمها الله تبارك وتعالى عليه ، وربما استغرق منه أوقاتاً وأوقاتا وجرَّت عليه الويلات والعواقب التي لا تحمد في الدنيا والآخرة ، وتجد بعض الناس لو تحركت ستارة النافذة أو اقترب أحد من عند باب بيته أو غرفته التي هو فيها ارتعد خشي من إنسان جاء ، وهو يمارس نظراً محرماً وسماعا محرما في المكان الذي هو فيه ولا يبالي بأن رب العالمين مطلع عليه ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ﴾[النساء:١٠٨] . أحدهم يقولون كان في نظر محرم في غرفةٍ له وإذا بصوت عند الباب فارتعد وخاف ، ظنه أحد له مكانة ففتح الباب وإذا بهرة عند الباب !! هرة عند الباب ارتعد وخاف!! ورب العالمين يراه ويطلع عليه . إذاً فعلا يحتاج العبد أن يحرك في قلبه الخوف حتى يكون هذا الخوف واقياً له من الوقوع في الفتن والوقوع في الأمور التي تغضب الله تبارك وتعالى وتسخطه جل في علاه . وإذا سكن الخوف في القلب أحرق مواضع الشبهات ، وإذا فُقد الخوف من القلب استولت عليه الشهوات وأهلكته وأوقعته في المعاطب والمهالك .

قال المصنف رحمه الله تعالى : ((**باب قول الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾** [آل عمران:١٧٥])) ؛ انظر هذا الحصر في هذه الآية لكيد الشيطان العظيم ومكره الكبَّار لعباد الله تبارك وتعالى في هذا الباب باب الخوف ، قال ﴿ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ ﴾ أي : يخوفكم بأوليائه . ولهذا ينبغي أن يُعلم –كما تدل هذه الآية الكريمة– أن من أعظم أعمال الشيطان إفقاد العبد الخوف من الله وإدخال مخافة أولياء الشيطان في قلب العبد ، وانظر الانتكاسة العظمى الكبرى عندما يكون قلب العبد بهذه الصفة ؛ ذهب عنه الخوف من الله تبارك وتعالى ووُجد في قلبه الخوف من غير الله سبحانه وتعالى ، وهذا من أعظم مطالب الشيطان التي يريدها من العبد المؤمن.

﴿ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ ﴾ أي يخوفكم بأوليائه ، يحرك في قلوبكم ويثير في نفوسكم الخوف من أولياء الشيطان ، ولهذا إذا وقع في قلب العبد هذا الخوف من أولياء الشيطان أصبح يلتمس رضاهم حتى ولو كان فيما يسخط الله ، حتى لو كان فيما يُغضب الله تبارك وتعالى .

قال الله جل وعلا: ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ جعل من شرط الإيمان إخلاص هذا الخوف لله وإفراده سبحانه وتعالى وحده به؛ ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ ﴾ أي أولياء الشيطان ومن يدعوكم الشيطان إلى الخوف منهم ﴿ وَخَافُونِ ﴾ أي وحدي وأفردوني بذلك وحدي ﴿ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ .

قال رحمه الله تعالى : ((**وقوله: ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ ﴾** [التوبة:١٨]**))** ؛ هذه الآية جاء في الآية التي قبلها نفيٌ لمعنىً كان يفهمه أهل الباطل في عمارة المساجد فقال جل في علاه: ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ ﴾؛ أي من كان على الشرك والكفر بالله وعدم الإيمان به سبحانه وتعالى ليس من عمَّار بيوت الله وإن فعل ما فعل ، وإن شيَّدها واعتنى بنظافتها وعمل على سقاية روَّادها وغير ذلك من المعاني ليس من عمَّار بيوت الله مادام على هذه الحال ﴿ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ ﴾ أي أعمالهم تشهد عليهم أنهم كفار وأنهم مشركون بالله تبارك وتعالى ؛ فهؤلاء لا ينفعهم ذلك النوع من العمارة لبيوت الله .

إذاً من هم عمار بيوت الله ؟ قال الله سبحانه ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ ﴾ و«إنما» من أدوات الحصر ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ ﴾ هذه صفات عمار بيوت الله . وينبغي على كل مسلم أن يعي هذه الصفات جيداً وأن يعمل على تحقيقها ليكون من عمار بيوت الله حقاً ،

وأول أمرٍ وأول ضابط في أوصاف عمار بيوت الله الإيمان بالله كما قال الله جل وعلا ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ ﴾ ؛ والإيمان بالله : هو الإيمان بوحدانية الله سبحانه في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته ؛ ولهذا الإيمان بالله يقوم على أركان ثلاثة لا إيمان بالله إلا بالإيمان بها :

١. الإيمان بوحدانية الله في ربوبيته ؛ باعتقاد أنه سبحانه وتعالى وحده الرب الخالق الملك المدبر الذي بيده أزمة الأمور ومقاليد السماوات والأرض وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن .

٢. والإيمان بوحدانية الله في أسمائه وصفاته ؛ بإثبات أسمائه الحسنى وصفاته العليا دون تحريف أو تعطيل ودون تكييف أو تمثيل .

٣. والإيمان بوحدانية الله في ألوهيته ؛ بأنه المعبود بحق ولا معبود بحق سواه ، ولا يكفي في هذا مجرد المعرفة بل لابد من تحقيق العبودية بإخلاص الدين لله تبارك وتعالى وإفراد الله سبحانه وتعالى بالعبادة ، وأن يعبد الله مخلصاً له الدين وأن لا يجعل مع الله تبارك وتعالى شريكاً في العبادة . هذا الإيمان بالله .

﴿ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ : والإيمان باليوم الآخر ؛ وهو اليوم الذي أعده الله تبارك وتعالى بعد الحياة الدنيا ليكون داراً للجزاء والحساب ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴾ [النجم:٣١] ، فهو يومٌ أعده الله تبارك وتعالى للجزاء والحساب ، فالإيمان بهذا اليوم ركنٌ من أركان الإيمان وأساسٌ عظيم لابد منه في عمارة بيوت الله تبارك وتعالى .

قال: ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ ﴾ ؛ وإقام الصلاة أعظم الأغراض التي بُنيت المساجد لأجلها ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (٣٦) رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ ﴾ [النور:٣٦-٣٧] .

﴿ وَآتَى الزَّكَاةَ ﴾ ؛ والزكاة قرينة الصلاة في كتاب الله ، والمراد بالزكاة أي الزكاة المفروضة ، زكاة المال التي افترضها الله سبحانه وتعالى على عباده ، وهي صدقة تؤخذ من الأغنياء وتردُّ على الفقراء ، وسميت «زكاة» لما فيها من تزكية صاحب المال وتزكية ماله .

﴿ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ ﴾ وهذا موضع الشاهد من هذه الآية للترجمة، ﴿ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ ﴾ : أي أفرد الله سبحانه وتعالى بالخشية وعُمِر قلبه بخشية الله وليس في قلبه إلا خشية الله سبحانه وتعالى .

وقوله : {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ} [العنكبوت:١٠] .

****

﴿ وَمِنَ النَّاسِ ﴾ المراد بهؤلاء : أي بعض الناس ممن رق دينه وضعف إيمانه وكان في إيمانه وفي تديُّنه على طرف، يعبد الله على حرف ، من كان على طرف عندما يُبتلى ويُمتحن ينقلب والعياذ بالله على عقبيه .

قال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ لكن هذا الإيمان ليس إيماناً راسخًا ولا إيمانا متمكناً وإنما هو إيمان ضعيف إيمانٌ على طرف .

﴿يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ﴾ إذا تعرَّض لمحنة وابتلاء ﴿جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ أي يقوم في قلبه خوفٌ من الناس فيعمل على طلب رضاهم ولو كان ذلك فيما يُسخط الله ويغضب الله تبارك وتعالى ، فيجعل فتنة الناس كعذاب الله ؛ تصبح حاله مع الناس في خوفه منهم بأن يجعل فتنة الناس كعذاب الله الذي يخاف منه أهل الإيمان فينزجرون عن المعاصي وينزجرون عن الأمور التي تسخط الله تبارك وتعالى .

فالآية فيها تقرير وجوب الخوف من الله والخشية من الله تبارك وتعالى ، وأن هذا القدر من الإيمان عندما يرسخ في قلب العبد المؤمن ويتمكن في قلبه لا يكون بهذه الحال ، أما إذا ضعُف هذا الإيمان ورقَّ دين العبد يصبح بهذه الحال إذا أوذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله .

وعن أبي سعيد رضي الله عنه مرفوعا : «إن من ضعف اليقين : أن تُرضي الناس بسخط الله ، وأن تحمدهم على رزق الله ، وأن تذمهم على ما لم يؤتك الله. إن رزق الله لا يجرّه حرص حريص ، ولا يرده كراهية كاره» .

****

ثم أورد الإمام المجدد شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى وأسكنه الفردوس الأعلى هذا الحديث حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعاً : ((**إن من ضَعْف اليقين**)) ؛ اليقين : هو تمام العلم وكماله بحيث لا يصبح في القلب أدنى تردد أو شك أو ارتياب . فاليقين : هو زوال الشك والريب وهو تمام العلم وكماله في القلب ، فمِن ضعْف هذا اليقين بالله سبحانه وتعالى في قلب المرء أن يرضي الناس بسخط الله .

قال: ((**إن من ضَعْف اليقين أن ترضي الناس بسخط الله**)) أي أن يعمل على طلب رضا الناس ولو كان في أمورٍ تسخط الله تبارك وتعالى وتغضب الله ، وهذا الطلب لرضا الناس تارةً يدفع إليه خوفا منهم ، أو تارةً يدفع إليه طمعاً فيما عندهم ، أو غير ذلك من الأغراض ؛ فيطلب رضا الناس في أمور تسخط الله تبارك وتعالى فهذا من ضعف اليقين، من ضعف يقين العبد بربه تبارك وتعالى أن يكون بهذه الصفة يُرضي الناس بفعل ما يسخط الله ويغضب الله جل في علاه.

((**وأن تحمدهم على رزق الله**)) أيضا هذا من ضعف اليقين ، هذه كلها علامات على ضعف اليقين : أن ترضي الناس بسخط الله ، وأن تحمدهم على رزق الله ؛هذا أيضا من ضعف اليقين «أن تحمدهم على رزق الله» وذلك عندما يصل إلى الإنسان خير ما على أيدي بعض المخلوقين جعلهم الله سبحانه وتعالى سبباً في ذلك الخير فلا يلتفت قلبه في الشكر والحمد إلا إليهم وينسى المنعِم المتفضل ، وتجده مثلا "لولا أنتم لما حصل لي كذا ، ولما أصبحت كذا ،ولما نجوت من كذا.." إلى آخره ، فينصرف قلبه إلى حمدهم وينسى المنعم جل في علاه ، ولهذا قال: ((إن من علامات ضعف اليقين أن تحمدهم على رزق الله)) هؤلاء الله جعلهم سببا .

وما جاء في هذا المعنى المقرر هنا لا يتنافى مع حديث ((لَا يَشْكُرُ اللَّهَ مَنْ لَا يَشْكُرُ النَّاسَ)) ، لكن ليس معنى شكر الناس التفات القلب إليهم ونسيان المنعِم سبحانه وتعالى ، وربما أيضا في بعض عبارات الناس حصَر النعمة في هؤلاء الذين جعلهم الله سبباً "لولا أنتم لما أصبحت كذا ،ولما سلِمت من كذا ،ولما حصل لي كذا" إلى آخر ذلك من العبارات ، فهذا كله من ضعف اليقين بالله ((أن تحمدهم على رزق الله)) .

أيضا من علامات ضعف اليقين : ((**أن تذمهم على ما لم يؤتك الله**)) هذا أيضا من ضعف اليقين أن تذم الناس على ما لم يؤتك الله أي : على ما لم يكتبه الله لك من الرزق ، وهذا قد يقع من كثير من الناس عندما مثلا يعرِض حاجةً من حاجاته على بعض الناس فلا تحصل له فيذمهم على ما لم يؤته الله وما لم يكتبه الله له جل وعلا ؛ وهذا إنما يكون فيما ليس للإنسان فيه حق لازم ، أما حقوق العبد التي ظُلم فيها أُخذت ابتزت منه تُعدِّي عليه فيها لا حرج عليه أن يذم من ظلمه لأن هذا الذم ذمٌ لهم في ظلمهم وتعدِّيهم ، ولا حرج عليه مثلا في مداعاتهم ومحاكمتهم ومقاضاتهم ومطالبة حقه وذمهم على تعديهم عليه ؛ هذا يدخل في هذا الباب ، لكن الأمور التي ليس للإنسان فيها حق وطلب معونة أو مساعدة ثم يشرع في ذم الناس فيما لم يؤته الله وما لم يكتبه الله تبارك وتعالى له ((وأن تذمهم على ما لم يؤتك الله)) أي : ما لم يكتبه الله تبارك وتعالى لك من الرزق ، وهذا من ضعف يقين العبد بالله ، والمفترض أن يقوي يقينه بالله ويسأل الله من فضله ويرجوه من واسع نواله ، ويطلب منه أن يهيأ له أبواب الرزق وأن يهيئ له أبواب المن والعطاء ويرجو الله . فإذاً من ضعف اليقين في قلب العبد أن يكون بهذه الصفة ، وأن يكون فقره إلى الله ضراعته وإلحاحه إلى الله يلتجئ فيه إلى الله سبحانه وتعالى وحده .

يُذكر أن رجلا مرة كانت به حاجة شديدة إلى مال وكانت عليه ديون ، فذُكر له أن أحد الكبار من الأثرياء وأصحاب الأموال جاء إلى البلد الذي هو فيه وقيل إنه سيكون موجوداً في المسجد في الوقت الفلاني ، فلو جئت إليه وكتبت حاجتك وعرضتها عليه وألححت عليه لعله يساعدك في حاجتك ، وفعلاً جاء وأعدَّ كتاباً وعريضةً وشرح حاجته ولما وصل إلى المكان الذي فيه ذلك الرجل وجده يصلي وبعد أن فرغ من الصلاة رفع يديه وأخذ يدعو ، قال "إذاً هو فقير مثلي ، والله لا أعرض حاجتي عليه وإنما أعرض حاجتي لمن رفع هو يديه إليه يسأله" وجلس يصلي في المسجد ويدعو الله ، وهيأ الله له من أبواب الرزق ما لم يكن يحتسب .

فالثقة بالله وحسن التوكل عليه وتمام الالتجاء إلى الله له أثره العظيم على العبد ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر:٣٦] ، ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق:٢-٣] ، ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ [الطلاق:٤] . فمن ضعف اليقين أن يذم الناس على ما لم يؤته الله ، وبعض الناس فعلاً يكون في هذا الجانب ضعيف الإيمان وحاجاته كلها منصرفة إلى طلب الناس ،ومن هذا إلى ذاك ومن الآخر إلى غيره وهكذا ، وهذا كله من ضعف اليقين .

ثم قال : ((**إن رزق الله لا يجرّه حرص حريص، ولا يرده كراهية كاره**))؛ وهذا كلام عظيم جداً في تمتين الإيمان والثقة بالله وحسن التوكل عليه تبارك وتعالى ، وسيأتي عند المصنف في الباب الذي يليه «بابٌ في التوكل على الله جل وعلا» وهو متمم لهذا المعنى . فرزق الله لا يجره حرص حريص ولا يرده كراهية كاره كما قال الله تعالى ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [فاطر:٢] ، ﴿إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ [الزمر:٣٨] وكلمة «حسبي الله» هذه كلمة التجاء إلى الله سبحانه وتعالى تقال في باب جلب النعماء وفي باب دفع الضر والبلاء ، بينما كثير من الناس إنما يستعملها في باب دفع الضر والبلاء ، وهي تقال في باب جلب النعماء وفي باب دفع الضر والبلاء والمعنيان مجتمعان في هذه الآية ﴿إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ أي: حسبي في جلب النعماء وفي فع الضر والبلاء، ولهذا يشرع للمسلم أن يقول هذه الكلمة وهي كلمة التجاء إلى الله واستعانة به تبارك وتعالى وتفويضٌ للأمر كله إليه سبحانه وتعالى .

وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من التمس رضا الله بسخط الناس رضي الله عنه وأرضى عنه الناس ، ومن التمس رضا الناس بسخط الله سخط الله عليه وأسخط عليه الناس» رواه ابن حبان في صحيحه .

****

ثم ختم رحمه الله تعالى هذه الترجمة بهذا الحديث؛ حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ((**من التمس رضا الله بسخط الناس رضي الله عنه وأرضى عنه الناس**)) وهذا من أعلى مقامات الدين وأرفعها أن يكون العبد بهذه الصفة في حياته لا يريد إلا رضا الله وأن يرضى الله عنه ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة:٧٢] ، فهمُّه أن ينال رضا الله ولا يبالي إذا كان الناس أو بعض الناس أو كثير

منهم أو قليل منهم سخطوا عليه ،لا يبالي بذلك لأن أهم شيء عنده هو أن يرضى عنه ربه ، أن يرضى عنه خالقه مالكه سبحانه وتعالى ، فسعيه في هذه الحياة التماس رضا الله .

((**من التمس رضا الله بسخط الناس**)) أي في أمور سخط الناس عليه فيها فلم يبالِ بذلك طالما أن هذا العمل في رضا الله وفي نيل مرضاته جل وعلا ، ما الذي يحدث؟ الجزاء من جنس العمل ، قال صلوات الله وسلامه عليه: ((**رضي الله عنه وأرضى عنه الناس**)) .

((**رضي الله عنه**)) ؛ والفوز برضا الله تبارك وتعالى من أكبر المطالب وأجل المقاصد التي يعمل أهل الإيمان على نيلها وتحصيلها ، ((رضي الله عنه)) أي فاز برضا الله سبحانه وتعالى عنه . ولهذا هذا المعنى فعلاً جدير أن يحضر في قلب الإنسان في مقامات الابتلاء ،كثير ما يبتلى الإنسان في هذه الحياة في أمور يُدعى إليها تسخط الله ،إما مثلاً من أب أو من أم أو من أخ أو من قريب أو من جار أو غير ذلك فدائماً يجعل نصب عينيه التماس رضا الله وأن يرضى عنه رب العالمين سبحانه وتعالى .

قال: ((**رضي الله عنه وأرضى عنه الناس**)) أي يعود ذامُّه من الناس حامداً ، وربما لا يكون في وقت الابتلاء والامتحان ولكن تظهر هذه في عواقب الأمور ، وأحيانا تظهر بعد موت الإنسان وتجد أناس كانوا مثلاً منهمكين في حياته في ذمه وإذا مات وذهبت عن النفوس الأغراض تحول إلى مادحٍ له . ولهذا ينبغي على الإنسان أن لا يحفُل قلبه برضا الناس في الأمور التي تسخط الله ، بل عليه أن يكون دائماً نصب عينيه نيل رضا الله سبحانه وتعالى ، قال: ((من التمس رضا الله بسخط الناس رضي الله عنه وأرضى عنه الناس)) .

((**ومن التمس رضا الناس بسخط الله سخط الله عليه وأسخط عليه الناس**)) وهذا أيضاً جزاءً وفاقا ، عندما أخذ يلتمس في أعماله رضا الناس في أمورٍ تسخط الله تبارك وتعالى وتغضبه كانت النتيجة وبالاً عليه ((سخط الله عليه وأسخط عليه الناس)) ، والصِلات التي بين الناس في غير الله وفي غير طاعة الله تعود دائماً إما في الدنيا أو في العقبى إلى عداوات ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾[الزخرف:٦٧] ، ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ [البقرة:١٦٦] كما مر معنا .

فهذا الحديث حديثٌ عظيم في هذا الباب عن أم المؤمنين عائشة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال رحمه الله تعالى :

فيه مسائل ؛ الأولى : تفسير آية آل عمران .

وهي قول الله تعالى : ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾ [آل عمران:١٧٥]

جاء سؤال : ما المراد بأولياء الشيطان ؟

أولياء الشيطان يعم كل ما يخوف به الشيطان عباده المؤمنين ؛ سواءً مثلا أعداء الدين أو غير ذلك من الأمور التي يحرك الشيطان في قلب العبد الخوف منها مما يجر العبد إلى مثلا ترك الواجب أو يجره إلى فعل المحرم ، فمثل هذا الخوف هو مما يزرعه الشيطان في قلب العبد المؤمن ومما يحركه الشيطان في قلب العبد المؤمن ، ولهذا جاء في الآية الكريمة ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾[الرحمن:٤٦] . إذا كان الخوف هو من الله لا يبالي بهذه الأشياء ، أما إذا ضعف هذا الخوف وأصبح الشيطان مثلا يحرك في قلب العبد الخوف من أوليائه فتجد الإنسان مثلا يتنازل عن واجبات من واجبات الدين ويتخلى عن أمور من أمور الدين وربما أيضا ارتكب أمورا محرمة ؛كل ذلك بما يحركه الشيطان في قلبه من خوف من أولياء الشيطان الذين يخوِّف بهم الناس ليوقعهم إما في محرم أو يوقعهم في ترك واجب أوجبه الله سبحانه وتعالى عليهم .

الثانية : تفسير آية براءة .

وهي قول الله تعالى : ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾[التوبة:١٨] إلى تمامها .

الثالثة : تفسير آية العنكبوت .

وهي قول الله عز وجل: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ [العنكبوت:١٠]

الرابعة : أن اليقين يضعف ويقوى .

وهذا أخذه الشيخ رحمه الله تعالى من قوله ((إن من ضعف اليقين)) ، فهذا يدل على أن اليقين يضعف ويقوى ، ولضعفه أسباب ولقوة اليقين أيضا أسباب ، ولهذا يحتاج العبد أن يُبعد عن نفسه وعن قلبه أسباب ضعف اليقين بالله سبحانه وتعالى وأن يعمل على العناية بالأسباب التي تؤدي إلى قوة اليقين بالله جل وعلا ، فاليقين يقوى ويضعف ولقوته أسباب ولضعفه أسباب .

الخامسة : علامة ضعفه ، ومن ذلك هذه الثلاث .

الخامسة علامة ضعفه يعني ثمة علامات إذا وجدت دلت على ضعف اليقين في القلب . قال رحمه الله تعالى (ومن ذلك هذه الثلاث) أي : أن ترضي الناس بسخط الله هذه واحدة . والثانية: أن تحمدهم على رزق الله . والثالثة: أن تذمهم على ما لم يؤتك الله . والشيخ رحمه الله أيضا ينبه بهذا أن الذي ذُكر في الحديث من علامات ضعف

اليقين ليس على وجه الحصر وإنما ذُكر شيء من أهم علامات ضعف اليقين التي إن وُجدت في القلب أو وُجد بعضها في القلب دل ذلكم على ضعف يقين قلب من وجدت فيه أو وجد فيه بعضها .

السادسة : أن إخلاص الخوف لله من الفرائض .

أن إخلاص الخوف لله من الفرائض : أي مما افترضه الله سبحانه وتعالى على عباده ، وهذا هو مقصود الترجمة ، ودل على ذلك أي أن إخلاص الخوف لله تبارك وتعالى من الفرائض قوله ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[آل عمران:١٧٥] وقوله﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ ﴾ [المائدة:٤٤] وقوله : ﴿وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ [البقرة:٤٠] والآيات في هذا المعنى كثيرة .

السابعة : ذكر ثواب من فعله .

الثامنة : ذكر عقاب من تركه .

ثواب من فعل الخوف وأتى بهذه الفريضة وعمل على تحقيقها في قلبه؛ ثوابه عند الله سبحانه وتعالى ، وأيضا عقاب من ترك ذلك ؛ وهذا واضح في الحديث الذي ساقه رحمه الله تعالى في آخر الترجمة ، وأن من فعل ذلك الذي هو التماس رضا الله تبارك وتعالى والبُعد عن جميع الأمور التي تسخط الله خوفاً من الله وخوفًا من عقابه ثواب ذلك رضا الله عنه سبحانه وتعالى ، وإذا رضي الله عنه توالت عليه الخيرات والمنن والبركات في الدنيا والآخرة، وأما إذا ترك ذلك والتمس رضا الناس بسخط الله ليس مبالٍ بالخوف من الله والأمور التي تسخط الله جل وعلا كانت العقوبة سخط الله تبارك وتعالى عليه ؛ فهذا فيه ثواب من فعله وعقاب من تركه .

وبهذا تنتهي هذه الترجمة بما فيها من مسائل .

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك .

اللهم صلِّ وسلِّم على عبدك ورسولك نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .